التاريخ فى سير أبطاله

محمد شريف باشـــا

للاستاذ محمود الخفيف

كان شريف فى عصره رجلا اجتمعت فيه الرجال وكانت مواقفه توحى البطولة وتخلق الأبطال ...

— ١ —

تحت هذا العنوان نضع اسم شريف ، وفى هـذا المجال نأتى بقبس من سيرته ؛ ومن أولى من شريف أن يتبوأ بين الأبطال مكاناً عليًّا ، إذا نحن ذكرنا رجال حركتنا القومية ؟

ولئن كانت جهود شريف لم يفد منها غير وطنه ، ولئن لم يدو اسمه فى آفاق العالم كما دوت أسماء غيره من الأبطال ، فكثير سواه كانوا فى ذلك مثله ، خطورتهم فى أوطانهم فحسب ، ومع ذلك فلم ينكر عليهم بطولتهم إلا ظالم أو ذو غرض ... وما البطولة فى جوهرها إلا أن يسمو الرجل على الحوادث ويقهرها إن غالبته ، وأن يسخرها ويوجهها إن سالمته ، فإن لم يتسن له هذا ولا ذاك كان فى كفاحه ومقاومته وتعاليه عن أن يذل أو يذعن دليل رجولته ومقياس بطولته . وما كانت الشهرة من دلائل العظمة أو من بواعثها ؛ فلكم تشهد الحياة من رجال يحسبهم الغافل من أوزاع الناس وإن لهم لنفوساً تنطوى على عناصر البطولة كأكمل ما تكون البطولة ...

ولقد كان شريف عظيماً بنفسه قبل أن يكون عظيماً بمنصبه. كان رجلاً فى عصر عزت فيه الرجولة وتطامنت فيه أقدار الرجال إما من شر يتقونه أو خير يرجونه ... ولذا يعتبر شريف بحق خالق جيل وباعث نهضة ، فهو فى عصره كان الرجل الذى اجتمعت فيه الرجال ، وكانت مواقفه توحى البطولة وتخلق الأبطال ...

وكان شريف تركى العنصر ما فى ذلك شك ، ولـكنه لم يعرف له وطناً غير مصر ولا قوماً غير بنى مصر . ولما بلغ أشده كان من رجال هذا الوادى فى طليعة العاملين منهم والمجاهدين ؛ يتلفت الرجال إذا حزبهم أمر أو أخذتهم حيرة فلا تستقر أعينهم إلا على شريف ، ولن يتقدم لنصرتهم فى مواطن الخطر والشدة غيره

تم الأمر فى مصر لمحمد على ، ذلك العصامى الفذ ، وأخذت جنوده فى صحارى العرب وفى مطارح السودان ، وتهيأت مصر لأن تستقبل على يد هذا البطل عصراً من عصور يقظتها كان الجيش فيه المحور الذى تدور عليه نهضتها . وفى صدر هذا العصر الفتى ولد محمد شريف ، فكان مولده بالقاهرة فى شهر نوفمبر من سنة ١٨٢٦

وحمله أبوه ، وقد انقضت مدة خدمته بمصر معه إلى الآستانة . وكان هذا الأب فى مصر قاضى قضاتها ، ولـكنه لم يلبث بالآستانة إلا بضع سنين ثم اختير للحجاز ، فمر بمصر ومعه ابنه ؛ ووقعت عينا واليها على الغلام ، وكانت عينا الوالى تلمحان النجابة فى سرعة عجيبة ، ولذلك طلب إلى أبيه أن يبقيه عنـده ليقوم على تربيته . وكان محمد على يومئذ فى ذورة مجده تهدد جيوشه عرش الخلافة وتحمل على الإعجاب به فرنسا ، وعلى الحنق عليه انجلترة ؛ وكان همه منصرفاً إلى الجيش ، فإذا بنى الرجال وأعدهم ، فإنما يكون ذلك ليتخذ منهم دعائم جيشه

وبقى الغلام فى القاهرة وأدخل المدرسة العسكرية التى أنشأها الوالى بالخانكة ، فيمن أدخل من أبناء الأمراء ووجوه القوم ؛ ومن ذلك الحين صارت مصر وطن شريف الذى لا يعرف له وطناً سواه

وهكذا نشأ شريف نشأة عسكرية ؛ ولـكن جيش مصر ما فتئت انجلترة تعمل على القضاء عليه حتى تم لها ما أرادت ،

ولـما يزل شريف فى سن اليفاعة ؛ واستطاع بالمرستون أكبر الكائدين لمحمد على أن يرغم الباشا عام ١٨٤١ على « أن ينكمش فى قوقعته الأصلية فى مصر» . وجاء فى فرمان السلطان فى تلك السنة للباشا المغلوب على أمره أنه « يكفى أن يكون لمصر ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدوا هذا العدد لأى سبب ما . . . » وأذعن الباشا ولم تغنه صلته بفرنسا ومظاهرتها إياه ؛ فما كانت انجلترة لتسمح بظهور مثل قوته فى مصر وهى التى جعلت أساس سياستها منـذ الحملة الفرنسية ألا يقوم فى وادى النيل نابليون آخر

وكان الأجدر بالشباب بعد هذا أن يتجهوا وجهة غير وجهتهم العسكرية . لقد أوفدت الحكومة فريقاً منهم إلى فرنسا فى عام ١٨٤٤ ، وكان من هذا الفريق محمد شريف ، فاختار أن يدخل مدرسة سان سير الحربية

كانت هذه المدرسة التى التحق بها شريف من أشهر المدارس يومئذ ؛ وإن فى اختياره المدرسة الحربية فى تلك الظروف لدليلاً على أن الجندية كانت توائم طبعه ، ففى الجندية الصحيحة حياة الإقدام والهمة والنظام والطاعة ، وتلك صفات امتاز بها شريف رجل السياسة فيما ظهر من أعماله بعد

قضى شريف فى تلك المدرسة عامين تجـلى فيهما ذكاؤه وطموحه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة تطبيق العلوم العسكرية ، فلبث بها عامين آخرين انتظم بعدهما فى سلك الجيش الفرنسى كما تقضى قوانين تلك المدرسة ليأخذ قسطه من المران العملى ؛ ثم تخرج شريف ونال رتبة يوزباشى أركان حرب فى ذلك الجيش

ولم تله شريفاً شؤون فنه عن غيره من الفنون ، فراح يقرأ التاريخ والسياسة ، ولا يفتأ يستزيد من المعرفة ، مستعيناً فى ذلك ببصيرة نيرة كانت من أظهر مواهبه ، وعزيمة صادقة كانت فى مقدمة خلاله ؛ وأتقن شريف الفرنسية وحذقها حتى لقد كان يعجل بها لسانه كأنه أحد أبنائها ، كما درس شريف طباع الفرنسيين ووعى قلبه ظرفهم وأناقتهم ، حتى صار بينهم وهو ذلك الفتى الشرقى وكأنه منهم ، ولذلك لقب « بالفرنساوى » وصار يجرى لقبه هذا على ألسنة معاصريه .. وليس معنى ذلك أن شريفاً قد جعل بينه وبين قومه سداً بما تعود من عادات الفرنسيين ، فما كان مثله بالمتكلف ، ولقد كان له من أصالته واعتداده بنفسه ما يربأ به عن ذلك العيب ، وإلا فكيف أصبح حين عاد إلى وطنه أشد الرجال مقاومة للنفوذ الأجنبى ؟

وولى أمر مصر عباس باشا الأول فأعاد أعضاء البعثات العلمية من الخارج ، فعاد شريف فيمن عادوا عام ١٨٤٩ م . ولقد نستطيع أن نتصور ما تركته حال مصر يومئذ من أثر فى نفس هذا الفتى الطموح ، فلقد تعلم وتأهب ليعود فيجد المدارس تغلق أبوابها ، والجيش يهلك عنه سلطانه بعد أن انهدت أركانه ؛ ويجد مصر وقد ذلت بعد عزة ، يبدو عليها مثل ما يبدو على ذى القوة والبأس وقد جرد من حسامه ، وعاهلها ناقم على العصر ومظاهر العصر ، ونافر من الأجانب وما يأتون به مما كان يعده من أنواع الغرور والبهتان

ضاقت مصر عن همة شريف وعن علم شريف ولـكن أين يذهب وليس له غير مصر ؟ وإذاً فليرض بأن يأخذ فى الجيش المصرى نفس الرتبة التى أخذها فى الجيش الفرنسى فليس من هذا الرضاء بد . ولئن كان جيش مصر لا يعمل فربما أتت الأيام بما ليس يجرى فى بال أحد ، فينصرف شريف من ميدان إلى ميدان إلا يكن فيه قتال فليس يخلو من نضال ...

وفى مصر اتصل شريف بسليمان باشا الفرنساوى ، وأعجب به القائد الكبير وأخلص له الود والمحبة ... ألا ليت هذا اللقاء كان أيام نصيبين وكوتاهية ، وإذاً لرأى التاريخ ماذا كان عسيا أن يأتيه شريف الجندى فى ميادين البطولة والتضحية ، ولـكنه كان فى تلك الأيام لا يزال طالباً يتطلع ويأمل

ولن يزال سليمان يوليه من عطفه وتأييده ، ثم يلحقه بحاشيته الحربية فى منصب (الياوران) ؛ ويظل هذا عمله فلا يخوض معركة ولا يرسم خطة ؛ وعباس فى شغل عن الجيش لأنه فى غنى عنه ، ولـكنه يضيق بما هو فيه ولا يطيق صبراً على إغفال عباس له وإن لم يقصد عباس هذا الإغفال ، فيعتزل الجندية التى لم يكن له منها غير اسمها ، ويكون هذا الاعتزال من جانب شريف أولى خطواته فى الدفاع عن كرامته ، ولسوف تكون له بعدها خطوات لن يخطوها إلا ذو عزة وذو نخوة ...

ويلتحق شريف بدائرة الأمير عبد الحليم ردحاً من الزمن يشرف على أعمالها بما اشتهر به من فطنة وبعد همة . ولقد كان الأمير وهو نجل محمد على من أقرانه فى البعثة ، فألان له جانبه وزاد فى إكرامه وإعزازه ... وشريف يقبل حياة الدعة على رغمه ، ففى طبعه ميل إلى النضال والكفاح ، وفى خلقه اعتداد يشبه الزهو ، بل لقد كان يبلغ به الذهاب بنفسه أحياناً حد السلف ، وتلك خلة لا يسعنا إلا أن نعدها على شريف مهما تكن بواعثها

وأخذ سعيد الولاية بعد موت عباس ، وكان سعيد ولع بالجيش ،

وإن لم تكن به حاجة إليه ، وحمله حبه للجيش على أن يشهد تدريبه بنفسه ثم بسط له يده كل البسط ، فألبسه أحسن اللباس وأطعمه أجود الطعام ، ومد له أسباب الترف والنعيم ، حتى لقد كانت تقاس كفاية ذلك الجيش عنده بحسن مظهره ووجاهة رجاله ... وكان شريف وجيه الطلعة جم الأناقة فضلاً عما كان يتحلى به من صفات الجندية ؛ لذلك جعله سعيد من المقربين ، ورقاه إلى رتبة (أمير ألاى) ، ثم ما لبث أن رفعه إلى رتبة (لواء) ووضعه على رأس الحرس الخصوصي؛ وهكذا يعود شريف إلى الحياة العسكرية إن جاز لنا أن نسمى حياة كهذه حياة عسكرية ...

وازدادت عرى المودة توثقاً بينه وبين سليمان باشا فزوجه من ابنته ، وفرح شريف بما ساقه القدر إليه من حظ عظيم ، وكان اسمه قد أخذ ينتشر بين معاصريه من البعداء عن الحاشية ووجوه القوم ، وعرف الناس يومئذ عنه النزاهة والاستقامة ، وأعجب من تسنى لهم رؤيته بما كان يبعثه مرآه في القلوب من هيبة وبما كان يشيعه في النفوس من حب ... والحق لقد كان شريف على جانب عظيم من قوة الشخصية ، شهد له بذلك الأجانب والوطنيون على السواء

وبدا لسعيد فنال به من الجندية إلى السياسة بعد أن وصل في الجندية إلى رتبة الفريق ، وكان هذا التحول بدء مرحلة جديدة في تاريخ حياته ، مرحلة حافلة بجلائل الأعمال سلكت شريفا في عداد الأبطال ؛ بل لقد كان هذا التحول بدء مرحلة جديدة في تاريخ مصر ؛ ولا غرو ، فلقد عظم فيها خطر شريف حتى صار تاريخه تاريخ مصر في طور من أطوارها ، وتلك منزلة لم ينلها إلا أفذاذ الرجال ، أولئك النفر الذين يتوقف مصير عصرهم على ما يعملون ، أو الذين تجد فيهم الحوادث أدواتها الحية إذا ما تمخضت تلك الحوادث عن ثورات وراحت كل ثورة تبحث عن رجلها حتى تهتدى إليه فتستقر في رأسه وفي جنانه .. وأى دليل على العظمة أقوى من أن يكون تاريخ الرجل هو تاريخ عصر من عصور وطنه ؟ على هذا الأساس قامت عظمة سعد في مصر الحديثة ، وعظمة لنكولن في أمريكا ، وبسمارك في ألمانيا ، وفردريك الأكبر في بروسيا ، وبطرس في الروسيا ، وغيرهؤلاء من الرجال فيما سلف من العصور وفيما اختلف من الأمم...

اختار سعيد شريفا ناظرا للخارجية ، وهنا أخذت مواهب ذلك الجندى تظهر في السياسة فتبهر ، وما لبث أن وجد شريف سبيله إلى قلوب من اتصلوا به فحمل أنصاره على محبته ، وحمل خصومه وحاسديه على إكباره وإن لم يريدوا ، وتهيأ لمصر في شخصه الرجل الذى لم تكن لها مندوحة عنه فيما هى مقبلة عليه من عظائم الأمور ... « يتبع »

الضعيف

شركة مصر لنسج الحـــرير

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى اثمانهـــــا ...

رائعة فى الوانهـــــا ...

فبـادروا بأخـذ طلبـاتكم